الدرس الثاني والعشرون

واجب الرعاة نحو رعاياهم

اخرج البخاري في صحيحه عن ابن عمر رضي الله عنهما قال سمعت رسول الله ﷺ يقول : كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته ، الامام راع ومسئول عن رعيته ، والرجل راع في أهله ومسئول عن رعيته ، والمرأة راعية في بيت زوجها ومسئولة عن رعيتها ،والخادم راع في مال سيده ومسئول عن رعيته ، قال: وحسبت أن قد قال: والرجل راع في مال ابيه ومسئول عن رعيته ، وكلكم راع ومسئول عن رعيته .

***

يبين الرسول الاعظم ﷺ واجب الرعاة نحو رعيتهم ، وهو واجب خطير ومسئولية عظيمة ، وأمانة كبرى ، جعلها الله في عنق من استرعاه رعية ، ووكل اليه أمر جماعة من الناس فهو مسئول عنهم ومطالب بهم بين يدي احكم الحاكمين.

وواجب الرعاة القيام بمصالح رعيتهم بالحفظ والامانة ، وحسن التدبير والصيانة ، والاحسان اليهم ، والعطف عليهم ، فمن فعل ذلك وقام به حق القيام كان تقديره لديهم عظيما ، وثوابه عند الله كبيراً ، وأجره جزيلا . وإن قصر في الرعاية وخان الامانة وأهمل الواجب وأساء المعاملة ولم يرع حق الله فيهم كان سخطهم عليه عظيما ووباله عند الله كبيراً ، وقد اقترف إثماً مبيناً ، وعملا شائناً لا

الراعي : الحافظ المؤتمن . والرعية : كل ما يشمله حفظ الراعي ونظره .

مبرر له أبداً . ثم بدأ عليه السلام مبيناً على سبيل التفصيل بعد الاجمال واجب الرعاة على اختلاف أعمالهم فبدأ بالامام أولا .

فالمام الناس من سلطان أو أمير ، وملك أو رئيس ، فهو راع لأمته ضامن لمصالحهم مسئول عنهم وعمن تحت إمرته ، من أهل مملكته وسلطنته ، كفيل بتنفيذ أحكام الله بهم من إقامة صرح العدالة وذلك صرح الظلم وإبادة الجور والباطل ، فهو خليفة الله في ارضه بتنفيذ احكامه ، واحلال حلاله ، وتحريم حرامه ، واقامة حدوده والضرب على ايدي المفسدين ، ورد اعتداء المعتدين ، ومراقبة الخونة والمتلصصين ، والتنكيل بالمجرمين ، والاخذ بيد المظلومين وغير ذلك من توطيد دعائم الأمن وسيادة السلام والطمأنينة بين الناس . وأن يسلك سيرة السلف الصالح والخلفاء الراشدين ، وسيرة النبي الكريم ، وأبي بكر وعمر في المسلمين . فيستمع لأقوال رعيته كما كانوا يستمعون ، ويصغي لهم كما كانوا يصغون . يحترم آراءهم ، ويحل مشاكلهم ،ويقبل نصائحهم ، ويواسي بائسهم ،يجل العلماء ، ويحترم الفضلاء ، ويبدأ بالمشورة أهل الرأي والحجا منهم تعطيفاً لقلوبهم وعليه أن لايغتر بمظاهر الملك الفارغة،وينخدع ببهرجه الكاذب،وينقطع الى ما هو فيه من أمر ونهي ، وعظمة وكبرياء ، ويترك الناس وشأنهم ،فان الله مطلع عليه وناظر اليه ، ومراقب لأعماله ، وليعلم انه مسئول عن كل فرد من رعيته أمام من لاتخفى عليه خافية ، فليستعد للجواب بين يدي الله المنتقم الجبار، وليتدبر قول الله: (وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون) .

وكذلك الرجل في بيته فهو قائد أسرته،ورب مملكته،الآمر الناهي المسموع الكلمة والمطاع الجانب في رعيته،فليحسن قيادتهم ما استطاع،الى طرق الخير والفلاح،وعليه ان يربيهم تربية صالحة عمادها الآداب القويمة،والاخلاق الكريمة،والعادات الطيبة المستقيمة، والعلم الصحيح ، والثقافة الحقة ، ويروضهم بالمحافظة على شعائر الدين ، والقيام بفرائض رب العالمين . سواء في ذلك بنوه وبناته ، وإخوانه وأخواته ، وزوجه

وخدمه ، واقرباؤه ورحمه ، وكل من كان من اعضاء اسرته ، أو تحت ولايته ، وأن يبتعد بهم بقوله وفعله عن الامور الدنيئة، والالفاظ القبيحة المستهجنة ، والعادات الذميمة ، وأن يحسن لزوجه العشرة ويعاملها بالاحسان والمعروف لا بالشدة والقسوة ، وأن يعامل سائر ولده باللين والحكمة ، لا بالعنف والغلظة . وأن يسلك الطريق الوسط في النفقة فلا يكون مقتراً شحيحاً فيعافه اهله ويمقته اولاده ، ولا يكون مبذراً مسرفاً فيؤدي بهم الى طرق المهالك والضلال . وليعلم أنه وحده المسئول عنهم والمطالب بهم أمام الله والناس ،وليتدبر ما جاء في الآية الكريمة (ياأيها الذين آمنوا قوا انفسكم واهليكم ناراً وقودها الناس والحجارة) .

وكذلك المرأة راعية في بيت زوجها فهي ربة المنزل ومصلحة البيت وام البنين والبنات فبها يقتدون وبأعمالها يتأسون ، ومن لبانها يرضعون ، فصلاحها صلاح لهم وفسادها فساد لهم ، فينبغي أن تكون مثالا صالحاً وقدوة حسنة حازمة في أعمالها حكيمة بتربيتها ، مدبرة لمصالح بيتها ، أمينة على ما ائتمنت عليه من محتويات البيت ومشتملاته حافظة له تسارع في إطاعة زوجها بامتثال أمره والعمل على وفق مراده قائمة بحقوق الزوجية والبيت من غير خلل أو تقصير ، ولا ينبغي أن تكون مثال المرأة الطائشة التي لاتقدر حق المنزل وما استرعيت به من ولدها وخدمها وامور بيتها ، وإنما تصرف الوقت بالتفنن في الزينات ، والقيام بالزيارات ، وعلى الشوارع والطرقات .

فهذه ومثيلاتها وبال على المجتمع باخراج نسل لايراعي الآداب العامة ، والاخلاق الكريمة ، وخطرها كبير وحسابها عند الله عظيم .

وكذلك الخادم راع في مال سيده ، وأمين عليه وحافظ له ، فواجبه أن يرعاه رعايته لماله ، وينميه تنميته لمكاسبه ، يرأف بحيوانه ويرحمه ، ويتفقده ويصلحه ، فانه مسئول عنه ومطالب به من الضياع .

وكذلك الولد راع في مال ابيه ، فعليه أن يحفظه ويرعاه ، ويحوطه بالعناية

والاصلاح ، وأن لا يهمله وينساه ، ولا يخونه فيما جناه ، وما محافظته عليه الا محافظة على ماله ورزقه وتدبير لمستقبله ، وبعد قليل من الزمن عائد اليه .ومسئول عليه ، فليتق الله في عمله ، وفيما استرعي به وائتمن عليه .

ثم ختم النبي ﷺ قوله بما استهل به في بدء هذا الحديث الشريف (وكلكم راع ومسئول عن رعيته) فلا تكاد تجد انسانا عظيما او حقيراً ، غنياً او فقيراً، مأموراً او أميراً ،إلا وكل اليه عمل استرعي فيه فليحسن إدارة مااسترعاه بهالله، والقيام بحقه ومقتضاه ، وأعظم ما استرعي عليه نفسه أن يزجرها عن طرق الموبقات ، ويسير بها في سبل الصالحات ، وإن لم يفعل فقد غشها وهو مسئول عنها .والعالم راع في دائرة اختصاصه ومسئول عن رعيته ، والوزير راع في وزارته ومسئول عن رعيته ،والنائب راع لمن ناب عنهم ومسئول عن رعيته ، والمعلم راع في مدرسته ومسئول عن رعيته ، والصانع راع في صنعته ومسئول عن رعيته ، وكلكم راع ومسئول عن رعيته .

والحديث أصل عظيم في القيام بالواجبات المطلوبة ، والرعاية الحسنة لكل فرد استرعاه الله رعية ، وائتمنه أمانة ، فليتق اللهالرعاةوليحافظوا على ما ائتمنوا عليه.

الدرس الثالث والعشرون

التحذير من فتن المال

اخرج البخاري في صحيحه عن ابي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : إن النبي ﷺ جلس ذات يوم على المنبر وجلسنا حوله فقال : إن مما أخاف عليكم من بعدي ما يفتح عليكم من زهرة الدنيا وزينتها فقال رجل يارسول الله : أو يأتي الخير بالشر فسكت النبي ﷺ فقيل :له ماشأنك تكلم النبي ﷺ ولا يكلمك فرأينا أنه ينزل عليه الوحي قال فمسح عنه الرحضاء فقال أين السائل وكأنه حمده فقال:إنه لايأتي الخير بالشر وإن مما ينبت الربيع يقتل أو يلم إلا آكلة الخضراء أكلت حتى اذا امتدت خاصرتاها استقبلت عين الشمس فثلطت وبالت ورتعت وإن هذاالمال خضرة حلوة فنعم صاحب المسلم ما أعطى منه المسكين واليتيم وابن السبيل أو كما قال النبي ﷺ:وإنه من يأخذه بغير حقه كمن يأكل ولا يشبع ويكون شهيداً عليه يوم القيامة .

* * *

خير الواعظين وعظا ، وأجداهم نفعا ، واحسنهم صنعا ، واعظمهم أثرا ، من يتخيرون الاوقات المناسبة ويغتنمون الفرص الموانية لارشاد التائهين ،وردالحائرين وانقاذالضالين من مهاوي الفتن والشرور ،وهذا هو السيدالحكيم ﷺ يتخير الاوقات الملائمة للموعظة والارشاد . وهذا عبد الله بن مسعود يقول : كان النبي ﷺ يتخولنا بالموعظة في الايام كراهة السآمة علينا . وها هوذا النبي ﷺ وقد(جلس ذات يوم على المنبر) والصحابة حوله مصغون لقوله ، واعون لكلامه ملتزمون للسكينة والوقار مشرئبون لما سيلقى عليهم من الاقوال الحكيمة والمواعظ

الثمينة ، وإذ النبي يستهل الموعظة بقوله : (إن مما أخاف عليكم من بعدي ما يفتح عليكم من زهرة الدنيا وزينتها) وهذه فقرة يسيرة من جوامع كلمه ﷺ حوت على ايجازها بشارة الصحابة الكرام بما سيكون على ايديهم من فتح البلاد واخضاع العباد وجلب الاموال الطائلة والغنائم الكثيرة وتحذيرهم من الغرور والركون الى هذه الاشياء الفانية والاعراض الزائلة واذا بسائل يسأل ويقول يارسول الله:(أو يأتي الخير بالشر) أي أتصير نعمة الله التي هي زهرة الدنيا وزينتها عقوبة ووبالا فيسكت النبي ﷺ سكوت المعنى في هذا الامر المفكر فيه، ولم يلبث قليلا إلا واخذه من الغشيان ما يأخذه عند نزول الوحي وفي هذه الفترة أخذ الصحابة الكرام يؤنبون الرجل السائل قائلين له:أي عمل عملته ، وأي ذنب اقترفته وأي خطيئة اجتنيتها تكلم النبي ﷺ ولا يكلمك حتى فرج عن النبي ﷺ وزال ما به من الغشيان والعرق يتصبب من وجهه الشريف وهو يمسحه بيده ثم يقبل عليهم وعلائم البشر تلوح على وجهه الشريف وهو يقول:(اين السائل وكأنه حمده انه لا يأتي الخير بالشر) فما قدر أن يكون خيرا يكون خيراً وما قدر ان يكون شراً يكون شراً وإن الذي أخاف عليكم تضييعكم نعمة الله وصرفكم إياها في غير ما أمر الله فلا يتعلق ذلك بنفس النعمة وأضرب لكم مثلين حكيمين أحدهما مثل المفرط في جمع الدنيا والآخر مثل المقتصد فيها.أما الاول فمثله مثل الربيع وذلك قوله : فان مما ينبت الربيع يقتل أو يلم بأن يقارب الهلاك فهذا المطر ماء السماء ينزله الله لاغاثة المخلوقين وإرواء كل ذي روح من إنسان او حيوان فرغم فوائده الكثيرة ومنافعه الغزيرة وما يتسبب عن ذلك من إنبات العشب والكلأ يأكل منه الحيوان فيكثر فينتفخ فيهلك أو يقارب الهلاك ، وكذلك الذي يكثر من جمع الدنيا ولا سيما من غير حلها ويمنع ذا الحق حقه فيستحق عذاب الله في الآخرة ومقت الناس في الدنيا وغير ذلك من أنواع الأذى الكثيرة (ولو بسط الله الرزق لعباده لبغوا في الارض) .

وأما مثل الثاني المقتصد في جمع الدنيا الطالب لحلها فقد مثل له عليه السلام بقوله : (إلا آكلة الخضراء) فكأنه قال ألا انظروا آكلة الخضراء واعتبروا بشأنها (أكلت حتى اذا امتدت خاصرتاها) وعظم جنباها اقلعت عنه سريعا و (استقبلت عين الشمس) تستمري بذلك ما اكلت وتجتره (فثلطت) القت ما في بطنها من أذى سهلا رقيقاً (وبالت ورتعت) في مرعاها ،وهذا مثل المقتصد في جمع الدنيا المؤدي حقها الناجي من وبالها كما نجت آكلة الخضراء ثم اتبع ذلك بقوله : (وان هذا المال خضرة) من حيث المنظر (حلوة) من حيث الطعم فلا يغرنكم خضرة لونه وحلاوة طعمه ،ثم أخذ يعرفهم صلوات الله وسلامه عليه الدواء الناجع والترياق الشافي لداء تلك الفتنة بقوله :(فنعم صاحب المسلم ما أعطى منه المسكين واليتيم وابن السبيل أو كما قال النبي ﷺ) مما يقارب ذلك بأن يصرفه في وجوه الخير والبر والاحسان من إعانة المنكوبين ، وإغاثة الملهوفين وعمارة المدارس والمستشفيات والعطف على ذوي الحاجات والعاهات ممن لايستطيعون الكسب لانفسهم وعيالهم على ما اشارت اليه الآيات الكريمة كقول الله جل شأنه: (والذين في اموالهم حق معلوم للسائل والمحروم) ثم اتبع عليه السلام ذلك بقوله: (وانه من يأخذه بغير حقه) بأن يجمعه من الحرام او من موارد مشبوهة او لم يخرج منه حقه الواجب فيه فهو (كمن يأكل ولا يشبع) لانه كلما نال منه شيئاً از دادت رغبته وقويت نهمته واستقل ما عنده (ويكون شهيداً عليه يوم القيامة) بقبح الحال وسوء المآل .

هذا واني أرى أن لامندوحة لنا من التلميح بذكر بعض العوامل والتغيرات الناتجة من أثر المال تحقيقاً للغرض المقصود من شرح هذا الحديث الشريف فأقول :

كانت الاموال في عهد النبي ﷺ يسيرة وقليلة فبعد انتقاله الى الرفيق الاعلى أخذ الخلفاء يجهزون الجيوش ويمدون السلاح لفتح ما جاورهم من البلاد ونشر دعوة الاسلام إلى ان مكنهم الله من عدوهم بعد حروب شديدة كان فيها الظفر

للمسلمين فكثرت الاموال وعظمت الغنائم والعطايا حتى أن أبا هريرة عند قدومه من البحرين جاء عمر بن الخطاب وقال : يا أمير المؤمنين جئتك بخمسمئة الف درهم فدهش عمر من ذلك وارتاب فقال يا ابا هريرة : اتدري ما تقول قال : نعم مئة الف خمس مرات فصعد عمر المنبر وقال : أيها الناس قد جاءنا مال كثير فان شئتم كلنا لكم كيلا وإن شئتم عددنا لكم عداً ثم تزايد المال على هذا الحد فبعد ان كان عمر دهشاً من هذه الثروة اصبحنا نرى في عهده اموال فارس والروم تملأ بيت مال المسلمين ولقد قال قائل لعمر بن الخطاب بعد ان اتاه بطائل الاموال صباحاً فلم يمس الا وقد فرقها ياامير المؤمنين لو تركت في بيوت الاموال شيئاً يكون عدة لنا في حادث يحدث فصكه عمر في صدره وزجره وقال له: تلك كلمة القاها الشيطان على فيك وقاني الله شرها وهي فتنة لمن بعدي ، إني لا اعد للحادث اذا حدث سوى طاعة الله ورسوله وهي عدتنا التي بلغنا بها ما بلغنا .

بعد هذا العهد المجيد عهد الزهد والورع جاء عهد الترف والاسراف مما كان له اعمق الاثر في تغيير الاحوال وفساد الاوضاع وهو ما خشيه ﷺ على امته من الافتتان بزهرة الدنيا وزينتها .

وحقاً ان المال لهو المحك الوحيد لمعرفة صدق الرجال واختبارهم وتمييز احوالهم ، فعلى العاقل ألا يغتر بما هو سراب وان يتدبر قول الله جل شأنه (يا ايها الناس اتقوا ربكم واخشوا يوماً لا يجزي والد عن ولده ولا مولود هو جاز عن والده شيئاً إن وعد الله حق فلا تغرنكم الحياة الدنيا ولا يغرنكم بالله الغرور).

الدرس الرابع والعشرون

الكبر والتواضع

اخرج البخاري في صحيحه عن ابي هريرة رضي الله عنه قال : قال النبي ﷺ: تحاجت الجنة والنار، فقالت النار: أوثرت بالمتكبرين والمتجبرين وقالت الجنة لا يدخلني إلا ضعفاء الناس وسقطهم قال الله عز وجل للجنة : انت رحمتي أرحم بك من أشاء من عبادي ، وقال للنار انما انت عذابي اعذب بك من أشاء من عبادي ولكل واحدة منهما ملؤها فأما النار فلا تمتلئ حتى يضع رجله فتقول: قط قط فهنالك تمتلئ ويزوي بعضها الى بعض ولا يظلم الله عز وجل من خلقه احداً، واما الجنة فان الله تعالى ينشئ لها خلقا .

* * *

الكبر مرض عضال ، وداء وبيل قتال ، وما بالك بمن يستنكف ان يكون لله عبداً شكوراً مطيعاً، ولامره ممتثلا، ولدينه منقادا ، ولرسوله متبعاً ، ولاحكامه منفذاً ولذنبه مستغفراً ، والمتكبر منازع لله في الربوبية ومتصف بالجبروتية ،ولهذا تجده جافي الطبع غليظ القلب عتلا فظاً جواظاً غليظاً قاسياً عنيداً وقحاً معرضاً عن قبول الحق ، وارشاد المرشد ، وقول الناصح ، لما قوي في نفسه واستحكم في لبه من سيطرة الغرور المذموم والحمية والانفة ،والفطرسة والعجب،وكان مثله مثال من قال الله تعالى فيه ونزل بحقه:(واذا قيل له اتق الله اخذته العزة بالاثم فحسبه جهنم ولبئس المهاد) فمثل هذا بعيد من رحمة الله ومغفرته واحسانه ولطفه ! إن رحمة الله قريب من المحسنين) وبغيض من الله تعالى (إنه لا يحب المستكبرين)

وربما هؤلاء الاقوام يمدهم الله بانواع النعم وسعة الرزق وقوة الجسم والعافية فلا يوجع لهم جسماً ولا يضني لهم بدناً ثم يأخذهم اخذاً وبيلا قال تعالى:(إنما نملي لهم ليزدادوا إثماً) وحسبك ان الكبر من صفات اهل النار ممن غضب الله عليهم وابعدهم من رحمته،وطردهم من جنته ،وهو ناشيء عن قسوة القلب وفقدان الرحمة وخلوه من الطاعة وتراكم الذنوب والآثام ، وضعف اليقين والايمان ، وإعراضه عن احكام الله تعالى وانقياده لهوى نفسه والشيطان،لأن المتكبر يرى نفسه فوق خلق الله واعظم منهم وذلك الغرور والتكبر مستمد من الشيطان إذ قال لربه: (أنا خير منه) ترفعاً واستكباراً فكان نصيبه من الله الطرد واللعن والخلود في النار . او كمن قال فيه ربنا سبحانه :(واذا تتلى عليه آياتنا ولى مستكبراً كأن لم يسمعها كأن في اذنيه وقراً فبشره بعذاب اليم) واخرج الامام احمد من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال : (من تعظم في نفسه واختال في مشيه لقي الله تعالى وهو غضبان) فليحذر المرء ان يتصف بهذه الآفة الرذيلة ، والخصلة الوبيلة ، وليجهد نفسه ان يكون من عباد الله حقا،وخلص اوليائه صدقاً، منقاداً لاوامره مسارعاً لرضاه ، مبتعداً عما نهاه ، مذعناً له بالألوهية ، مقراً له بالوحدانية ، ذا قلب سليم ، وضمير نقي ، وخلق رضي ، وعمل مستقيم ، عطوفاً على عباد الله تعالى ورحيماً كما قال تعالى لرسوله :(واخفض جناحك للمؤمنين) فكن أيها المؤمن العاقل ممن تواضع الله لتكون في زمرة من قال فيهم: (اولئك هم الوارثون الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون) لما تحققوا به من مقام العبودية وحسن التواضع . ومن تأمل في وصف الله سبحانه لنبيه ﷺ بالعبودية مع توفر الاوصاف والنعوت بقوله:(سبحان الذي أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الاقصى) علم فضل هذا المقام وسعى للدخول في افراده والتحقق بمعناه ، طلباً للفوز بجنته ،والسعادة برضاه . واليك ما جاء في هذا الحديث الشريف من محاججة الجنة والنار .

(تحاجت الجنة والنار) اي تنازعتا بلسان الحال او المقال بأن اودع الله بكل منها القدرة على النطق والكلام (فقالت النار أوثرت) بمعنى اختصصت (بالمتكبرين والمتجبرين) لفظان مترادفان لغة فالثاني تأكيد الاول ،او المتكبر المتعظم بما ليس فيه والمتجبر الممنوع الذي لا يوصل اليه ولا يقدر عليه، او الذي لا يبالي بضعفاء الناس وسقطهم ولا يقيم لهم وزناً ولا شأنا لعدم اكتراثه بهم (وقالت الجنة ما لي لا يدخلني الا ضعفاء الناس وسقطهم) المحتقرون بين الناس الساقطون من اعينهم فلا يلتفت اليهم لمسكنتهم .وتواضعهم لربهم سبحانه . وفي حديث البخاري وغيره في صفة اهل الجنة واهل النار عن حارثة بن وهب عن النبي ﷺ قال : ألا اخبركم بأهل الجنة كل ضعيف مستضعف لو اقسم على الله لأبره ،إلا اخبركم باهل النار كل عتل جواظ مستكبر) ثم قال عليه السلام في هذا الحديث الذى نعاني شرحه:(فقال الله عز وجل :للجنة انت رحمتي) اي محلها (ارحم بك من اشاء من عبادي) وانما فسرنا قول النبي ﷺ انت رحمتي بمحل الرحمة لأن الرحمة من صفاته تعالى التي لم يزل بها موصوفاً (وقال للنار :انت عذابي اعذب بك من اشاء من عبادي ولكل واحدة منها ملؤها فأما النار فلا تمتليء حتى يضع رجله) وانكر ابن فورك لفظ رجله وقال انها غير ثابتة ،وقال ابن الجوزي هي تحريف من بعض الرواة،ورد عليها برواية الصحيحين بها،واونت بالجماعة وقال البغوي:القدم والرجل في هذا الحديث من صفات الله تعالى المنزه عن التكيف والتشبيه فالايمان بها فرض والامتناع عن الخوض فيها واجب فالمهتدي من سلك فيها طريق التسليم والخائض فيها زائغ والمنكر معطل والمكيف مشبه ليس كمثله شيء (فتقول) النار (قط قط قط) ثلاثاً (فهنالك تمتليء ويزوي بعضها الى بعض) اي يجتمع وتلتقي على من فيها ولا ينشيء الله تعالى لها خلقاً كما للجنة (ولا يظلم الله عز وجل من خلقه احداً) لم يعمل سوأ فلا ينشيء لها خلقاً يعذبهم لاستحالة الظلم عليه

سبحانه عقلا ونقلا (وأما الجنة فان الله تعالى ينشيء لها خلقاً) لم تعمل خيراً حتى تمتلىء وفي حديث انس عند مسلم مرفوعاً :يبقى من الجنة ما شاء الله ثم ينشيء الله تعالى خلقاً مما يشاء .

فالعاقل من يحسن معاملة اخوانه وجيرانه ويقضى حوائجهم ويسعى لجلب النفع لهم ويكون حسن المعاملة والاخلاق وليسارع الى مغفرة الله ورحمته فعسى أن يشمله باحسانه ويعمه بعفوه وغفرانه (وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والارض اعدت للمتقين) .

الدرس الخامس والعشرون

ايثار الصحابة اخوانهم على انفسهم

أخرج البخاري في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رجلا أتي النبي ﷺ فبعث الى نسائه فقلنا ما معنا إلا الماء فقال رسول الله ﷺ : من يضم أو يضيف هذا فقال رجل من الانصار : أنا فانطلق به إلى امرأته فقال : أكرمي ضيف رسول الله ﷺ . فقالت : ما عندنا الا قوت صبياني فقال : هيئي طعامك وأصبحي سراجك ونومي صبيانك اذا أرادوا عشاء . فهيأت طعامها ، واصبحت سراجها ، ونومت صبيانها ثم قامت . كأنها تصلح سراجها فأطفأته فجعلا يريانه انهما يأكلان ، فباتا طاويين فلما أصبح غدا إلى رسول الله ﷺ فقال ضحك الله الليلة ، وعجب من فعالكما .

***

مزايا عالية ، واخلاق كريمة ، وصفة حسنة تتجلى واضحة وضوح الشمس في رابعة النهار ، ظاهرة لكل ذي لب سليم ، وعقل صحيح مستقيم ، إلا من أضل الله سعيه ، واعمى قلبه ، وحاد به شيطانه عن جادة الحق والصواب ، كان يتحلى بها اصحاب رسول الله ﷺ وتظهر بهم واضحة جلية في مناسبات عديدة ومواقف كثيرة كان لهم فيها القدح المعلى والذكر الحسن . وكما ان الله سبحانه اختار نبيه محمداً ﷺ على سائر اخوانه من الأنبياء والمرسلين ، وخصه بمزايا لم تكن لاحد من العالمين ، كذلك اختار لصحبة نبيه خيرة الناس من خلقه وخصهم بمزايا لم تكن لسواهم من الناس اجمعين ، حاشا الأنبياء والمرسلين ، واثنى عليهم سبحانه في

غير موضع من القرآن الكريم تنبيهاً على جلالة قدرهم ، وعلو منزلتهم ، وعظيم فضلهم وشرفهم . فقال تعالى يصفهم بشدة الرحمة ولين الجانب لبعضهم بعضاوشدتهم على الكفار المعاندين وغير ذلك من الاوصاف المعتبرة بقوله : (محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعا سجداً يبتغون فضلاً من الله ورضواناً سيماهم في وجوههم من أثر السجود) وقال سبحانه ايضاً يصف اصحاب نبيه ﷺ من مهاجرين وانصار بأفضل مايصف به انسان (للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلاً من الله ورضواناً وينصرون الله ورسوله اولئك هم الصادقون . والذين تبوؤا الدار والايمان من قبلهم يحبون من هاجر اليهم ولا يجدون في صدورهم حاجة مما اوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ومن يوق شح نفسه فاولئك هم المفلحون) فوصفهم سبحانه في عجز هذه الآية بشدة الايثار مع وجود الفاقة . ولعمري إنه وصف جليل لو تخلق به مسلمو عصرنا الحاضر لرأينا آثاره الحسنة ،وفوائده الجمة ،ومنافعه العميمة في مختلف اعمالنا. ثم عقب سبحانه مامضى من الآيات بوصف عام يشمل المؤمنين بعد الصحابة الكرام من مهاجرين وأنصار الى يوم القيامة فقال : (والذين جاؤا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولاخواننا الذين سبقونا بالايمان ولا تجعل في قلوبنا غلا للذين آمنوا ربنا انك رءوف رحيم) واثنى الله على اصحاب نبيه ثناء عاما لم يدع منهم احداً الا شمله ووعده بالحسنى كما قال سبحانه : (لا يستوي منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل أولئك أعظم درجة من الذين أنفقوا من بعد وقاتلوا وكلاً وعد الله الحسنى والله بما تعملون خبير) وغير ذلك من الآيات الكثيرة ،والوصايا البليغة على لسان سيدنا رسول الله ﷺ امسكنا عنها خشية الاطالة . واليك مانحن بصدده في شرح هذا الحديث الشريف في بيان شيء من ايثار الصحابة رضي الله عنهم ليكون مثالا يحتذى به لدى مسلمي العالم اجمع .

اتى ابوهريرة عبد الرحمن بن صخر الدوسي النبي ﷺ يوما شاكياً له مايجده

من الم الجوع وما اصابه من الجهد (فبعث) عليه السلام (الى نسائه) امهات المؤمنين يطلب منهن مايضيفه به ليزيح عنه ما يجده من الم الجوع وشدته (فقلن مامعنا) اي عندنا الا الماء (فقال رسول الله ﷺ من يضم) اليه في طعامه وعلى مائدته (أو يضيف) وهذا شك من الراوي ، وفيه بيان حرص الصحابة على الفاظه ﷺ من غير تصرف فيها . (هذا) الرجل ويعني به النبي ﷺ ابا هريرة (فقال رجل من الانصار أنا) اضيفه يا رسول الله . وقد اختلف في تعيين هذا الرجل ففي رواية مسلم فقام رجل من الانصار يقال له ابو طلحة وعلى هذا فالمرأة ام سليم والاولاد انس واخوته ، لكن استبعد الخطيب ان يكون ابو طلحة هذا هو زيد بن سهل فقال هو رجل من الانصار لم يعرف اسمه ، ووجهه ان هذا الرجل المضيف ظهر من حاله أنه قليل ذات اليد فانه لم يجد مايضيف به الا قوت اولاده وابو طلحة زيد بن سهل كان اكثر انصاري بالمدينة مالا من نخل كما مر آنفاً معنا في موضعه . وقيل هو ثابت بن قيس، او عبد الله بن رواحة .

(فانطلق به الى امرأته فقال أكرمي ضيف رسول ﷺ فقالت ماعندنا الا قوت صبياني) ولا طاقة لهم بالصبر على الجوع (فقال) لها مرشداً ومبيناً ماينبغي أن تعمله (هيئي طعامك واصبحي سراجك) اي اوقديه (ونومي صبيانك اذا ارادوا عشاء) وانما نوموا الصبيان جياعا قضاء لحق رسول الله ﷺ وايثارا له واكراما لضيفه وقياما بواجبه وحقه (فهيأت طعامها واصبحت سراجها ونومت صبيانها) صرفا لهم عن العشاء (ثم قامت كأنها تصلح سراجها فأطفأته فجعلا) اي الانصاري وزوجته (يريانه أنهما يأكلان فباتا طاويين) بغير عشاء ، واكل الضيف طعام الصبية الصغار وما هيء لهم (فلما أصبح غدا إلى رسول الله ﷺ فقال) له النبي ﷺ (ضحك الله الليلة) ونسبة الضحك والتعجب الى الله تعالى مجازية لاستحالة ذلك عليه سبحانه، والمراد بها هنا الرضى بصنيعهما والثناء عليهما بما اظهرا من ايثارهما مع الفاقة الشديدة والحاجة الماسة قياما بواجب ضيفه ﷺ . فأنزل الله

عز وجل تكريماً لهما وبياناً لحسن ايثارهما قوله:(ويؤثرون على انفسهم ولو كان بهم خصاصة) اي فاقه . وشدة حاجة .

ومن ايثارهم أن من كان عنده امرأتان كان ينزل عن احداهما ويزوجها واحداً من المهاجرين . وكانوا يقدمون غيرهم في الاموال مع احتياجهم اليها وهذا الوصف لايخص الانصار فحسب فقد روي عن ابن عمر رضي الله عنهما انه قال أهدي لرجل من اصحاب النبي ﷺ رأس شاة فقال إن أخي فلاناً وعياله أحوج إلى هذا منا فبعثه اليهم فلم يزل يبعث به واحداً الى آخر حتى تداولها سبعة بيوت ثم عادت لى الاول.

هذه مزايا نبيلة مكنها النبي ﷺ في نفوس اصحابه ولا تتمكن هذه الصفات في امة من الامم الا ويكتب لها السعادة والمجد ، والظفر والبقاء مابقيت متمسكة بأهدابها محافظة عليها ولا تعرض عن هذه التعاليم والاخلاق امة إلا ويكتب عليها الذل والشقاء والهلاك والدمار مادامت معرضة عنها جادة على الاخذ بسواها .

وما اوردناه في حق الصحابة الكرام وبيان ايثارهم وفضلهم فهو قليل من كثير بل نموذج يسير اوردناه على سبيل العظة والتذكرة لعل الله تعالى يوفقنا الى التأسي باعمالهم، وتتبع آثارهم، والسير على نهجهم القويم ،وطريقهم المستقيم، فمنه التوفيق والهداية .

الدرس السادس والعشرون

آداب المائدة

اخرج البخاري في صحيحه عن عمر بن ابي سلمة رضي الله عنه قال: كنت غلاما في حجر رسول الله ﷺ وكانت يدي تطيش في الصحفة فقال لي رسول الله ﷺ: يا غلام سم الله ، وكل بيمينك ، وكل مما يليك ، فما زالت تلك طعمتي بعد .

***

من الآداب الحسنة التي ينبغي المرء أن يتحلى بها ، ويتجمل بالمحافظة عليها ، ما أمر به النبي ﷺ عمر بن أبي سلمة في هذا الحديث الشريف .

كان عمر بن أبي سلمة غلاماً صغيراً دون سن البلوغ والتكليف ، وكان في حجر الرسول ﷺ وتحت رعايته ونظره، وهو ابن أم سلمة زوج النبي ﷺ ورضي عنها : بينما كان يأكل ذات يوم مع النبي ﷺ إذ لحظ النبي ﷺ منه عدم مراعاة لآداب الطعام والمائدة فأرشده الى ماينبغي المحافظة عليه من الآداب عند إرادة الأكل (فقال) له صلوات الله وسلامه عليه على سبيل التعليم والارشاد .(ياغلام سم الله) طرداً للشيطان وتبركاً باسم الله الكريم وذكره العظيم ،ويستحب الاتيان بها من كل واحد بناء على ماذهب اليه الجمهور من أن سنة الكفاية كفرضها مطلوبة من الكل لا من البعض ومثل الأكل والشرب بل كل أمر ذي بال وشأن لايبدأ فيه ببسم الله فهو أبتر وناقص وقليل البركة والخير كما ثبت في الحديث عنه عليه السلام،واكملها بسم الله الرحمن الرحيم فان تركها في ابتدائه سهواً أو عمداً أتي بها

الحجر كما في المصباح بالفتح وقد يكسر حضنه وهو مادون إبطه الى الكشح وهو في حجره :أي كنفه وحمايته . وتطيش تتحرك .

في أثنائه ، ولو سمى مع كل لقمة فهو أولى وأحسن حتى لايشغله الشره في الطعام عن ذكر الله تعالى.ثم أتبع عليه السلام ذلك بقوله (وكل بيمينك)والتيامن مندوب في كل ماهو من باب التكريم كغسل ووضوء ولبس ثوب ودخول مسجد وفي الأكل والشرب وغير ذلك . واليسار لضد ذلك كامتخاط واستنجاء وخروج من مسجد وما أشبهه،لأنه صلى الله عليه وسلم كان يحب التيامن في تنعله وترجله وطهوره وفي شأنه كله رواه البخاري ومسلم ، وروى ابو داود باسناد صحيح عن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها قالت : كانت يد رسول الله ﷺ اليمنى لطهوره وطعامه ، وكانت اليسرى لخلائه ، وما كان من أذي ، وفي صحيح مسلم من حديث سلمة بن الأكوع أن النبي ﷺ رأى رجلا يأكل بشماله ، فقال : كل بيمينك قال:لاأستطيع قال : لا استطعت فما رفعها الى فيه بعد . ثم قال عليه السلام : (وكل مما يليك) وهو من الآداب المحبوبة لأن أكله من غير ما يليه فيه دليل على شرهه ، وزيادة نهمه ، وسوء أدبه ، وتعد على حقوق غيره ، وأن النفس تعافه وتستقذره لاسيما في المائعات من الأطعمة ، أما الفاكهة والتمر وأشباهها فقد نقل العلماء جواز اختلاف الأيدي وحسن الاختيار في الطبق ، والأكمل أن يأكل المرء مما يليه فاكهة أو تمراً أو غيرهما ، وفيه دلالة على حسن أدبه وجميل مودته وعشرته.فيقول عمر بن أبي سلمة راوي هذا الحديث :(فما زالت تلك طعمتي بعد) اي صفة اكلي عملا بموعظته وإرشاده .

هذه آداب يسيرة سهلة المأخذ والعمل ينبغي للمرء مراعاتها واستقصاء مابقي من الآداب التي لم تذكر في هذا الحديث الشريف كترك النفخ للطعام وكغسل اليدين قبل الأكل وبعده محافظة على الصحة والنظافة وتأسياً بسيرته وشمائله ، واخلاقه وآدابه صلوات الله وسلامه عليه ، وكحمد الله تعالى في نهايته على ماساق اليه من نعم وما هيأ له من خير الى غير ذلك من الآداب الكثيرة .

الدرس السابع والعشرون

تحريم الخمر وانقياد الصحابة لاوامر الله

اخرج البخاري في صحيحه عن انس بن مالك رضي الله عنه قال : ما كان لنا خمر غير فضيخكم هذا الذي تسمونه الفضيخ فاني لقائم أسقي ابا طلحة وفلاناً وفلاناً إذ جاء رجل فقال وهل بلغكم الخبر فقالوا:وما ذاك قال: حرمت الخمر قالوا: أهرق هذه القلال يا أنس قال:فما سألوا عنها ولا راجعوها بعد خبر الرجل.

* * *

جاء الرسول ﷺ بالدين الحنيف من عند الله تعالى والعرب قد استحكمت فيهم عادات ، ورسخت بهم تقاليد ورثوها عن الآباء والاجداد . وقد الفتها نفوسهم واستساغتها أبدانهم ، وجرت بهم مجرى الدم من جسد الانسان ،

وتلك العوائد منها ما هو صالح للبقاء ولا ضرر منه على تكوين الامة وحياتها وذلك كالتمدح بالشجاعة والكرم ، والشهامة والعفة وما اشبهه ، ومنها ماهو ضار فاسد يريد الشارع الحكيم ﷺ ابعادهم عنه وتبيين ضرره ومفاسده بمتنوع الطرق والاساليب وذلك كوأد البنات خشية الفقر والعار ، اوما تعارفوه من تعاطي الميسر والخمر وغيرهما . ولهذا اقتضت الحكمة الآلهية في التشريع في جملة صالحة

الفضيخ بفتح الفاء وكسر الضاد شراب يتخذ من البسر وحده من غير ان تمسه النار،والفضخ الكسر لان البسر يشدخ أي يكسر ويترك في وعاء حتى يغلي، والحصر المذكور بقول أنس لعله كان بالنسبة لما كان عنده او لما اطلع عليه فلا ينافي انه كان بالمدينة خمر غير الفضيخ .

من الاحكام ان يتدرج النبي ﷺ بهم بتحريمها شيئاً فشيئاً كما وقع في تحريم الخمر على ماسنبينه .

سئل سيدنا رسول الله ﷺ عن الخمر والميسر وحكم الله بهما ، فأجابهم بما جاء في سورة البقرة بقوله تعالى : (يسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما إثم كبير ومنافع للناس واثمهما أكبر من نفعهما) فلم يطلب الله في هذه الآية الانكفاف والابتعاد عنها صريحاً وانما يفهم ذلك منه من علمت مداركه وسمت نفسه ، وفطن لاسرار التشريع الالهي وعلم ان ما عظم ضرره ، وزاد اثمه ، وقل نفعه يتأكد في حق المرء تركه إذ لايوجد ما هو شر محض ، ثم اتبع الله جل شأنه بآية النساء المصرحة بنهيهم عن الصلاة وهم في حالة السكر وغياب العقل حتى يعلموا مايقولون في صلاتهم فقال : (ياايها الذين امنوا لاتقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون) فجاءت مؤكدة للآية السابقة ، وناهية عن تعاطيه في حالة مخصوصة وذلك في الصلاة ، ومعلوم من الدين بالضرورة ان الصلاة تتكرر في خلال اليوم والليلة خمس مرات متعاقبة ولا يتسنى لشارب الخمرة ان يشربها ويأمن على نفسه من نشوتها قبل دخول الوقت الثاني للصلاة ، فان لم تكن هذه الآية مانعة لتعاطيها فهي مقالة له . ثم نزلت آية المائدة مصرحة بالتحريم البات والنهي القاطع بحظرها وازوم الكف عنها فقال تعالى : (ياايها الذين آمنوا انما الخمر والميسر والانصاب والازلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون ، إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء في الخمر والميسر ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة فهل انتم منتهون) . وجاءت الاحاديث الصحيحة من كلام رسول الله ﷺ مؤكدة لتحريمها ، ومبينة لما ينتج عنها من اضرار ومفاسد ، ومشاحنة وبغضاء ، وما عسى ان يتولد منها من امراض فتاكة ، واسقام وعلل مضنية تؤدي بشاربها الى الهلاك وخسارة الدنيا والآخرة . وفي هذا الحديث الذي نحن بصدد شرحه يتجلى بوضوح تام ما كان عليه اصحاب رسول الله ﷺ من حب امتثال اوامر

الله ورسوله والمسارعة في اجتناب نهيهما ، والعمل على مرادهما مما سنعرض له شرحاً وتبيينا .

بينما كان الصحابي الجليل ابو طلحة زيد بن سهل الانصاري في منزله بالمدينة المنورة ، ومعه نفر من الصحابة الكرام جاءت تسميتهم في رواية مسلم وهم : ابو دجانة ، وسهيل بن بيضاء ، وابو عبيدة ، وابي بن كعب ، ومعاذ بن جبل ، وابو ايوب ، يسقيهم انس بن مالك ربيب ابي طلحة الخمر ويدير عليهم بكؤوسها وذلك قبل تحريمها (اذ جاء رجل فقال : وهل بلغكم الخبر فقالوا: وما ذاك قال: حرمت الخمر (يعني حرمها الله تعالى تحريماً باتا ، ونهى عنها على لسان رسول الله ﷺ فلم يترددوا في صدق الخبر وبادروا بهمة صادقة ، وعزيمة قوية ، وايمان ثابت متين ، و (قالوا اهرق هذه الفلال ياانس) والفلال : الجرار التي لا يقل احدها الا القوي من الرجال لضخامتها (قال) انس (فما سألوا عنها ولا راجعوها بعد خبر الرجل) . وانما لم يسألوا عنها ولم يراجعوها لما وقر في صدورهم وكمن في افئدتهم من ايمان صادق واسلام صحيح .

هذا ما كان من عمل هؤلاء الصحابة حيال امر الله ورسوله ، واستجابة رغباتهما ، والسير على منوالهما ، حقق الله بالخير رغباتنا والهمنا السيرة الصالحة والقدوة الحسنة .

الدرس الثامن والعشرون

فضيلة تلاوة القرآن الكريم

اخرج البخاري في صحيحه عن أسيد بن حضير رضي الله عنه قال : بينما هو يقرأ من الليل سورة البقرة وفرسه مربوطة عنده إذ جالت الفرس ، فسكت فسكنت ، فقرأ فجالت الفرس ، فسكت وسكنت الفرس ، ثم قرأ فجالت الفرس فانصرف وكان ابنه يحيى قريباً منها فأشفق أن تصيبه ، فلما اجتره رفع رأسه إلى السماء حتى ما يراها فلما أصبح حدث النبي ﷺ فقال له: إقرأ يابن حضير إقرأ يابن حضير قال: فأشفقت يارسول الله أن تطأ يحيى وكان منها قريباً فرفعت رأسي فانصرفت اليه ، فرفعت رأسي الى السماء فاذا مثل الظلة فيها أمثال المصابيح فخرجت حتى لا أراها قال : وتدرون ما ذاك قلت : لا قال : تلك الملائكة دنت لصوتك ، ولو قرأت : لأصبحت ينظر الناس اليها لاتتواري منهم .

***

القرآن الكريم هو النظام الالهي ، والوحي المعجز . والدستور الرباني الذي لايأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، وقد ضمن الله حمايته وكفل حفظه (إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون) فلا تصل اليه يد العابثين بتغيير وتبديل أو تحوير وتزوير .

والقرآن الكريم هو أساس الشريعة الاسلامية ، ومنه يستمد الاحكام الشرعية ، والمسائل الفقهية ، والعلوم الكونية . والحق أنه عمادنا في أمر ديننا ودنيانا ، فالعاقل من يكثر تلاوته واستذكاره للاهتداء بهديه ، والاسترشاد

بمواعظه ،والاعتبار بقصصه ، والالتقاط من دره وحكمه، كيف لا وهو أساس الفصاحة ، وينبوع البلاغة والبراعة فتجد الخطيب المصقع ، والشاعر البليغ يقتبسان من آياته ، ويستمدان من عذوبة الفاظه ومعانيه ما يزينان به كلامهما ويحسنان به مقالهما .

هذا موضع القرآن في جلالته وتأثيره ، فعلى المؤمن التمسك بأهدابه ، والمسارعة الى امتثال أمره واجتناب نهيه ، والوقوف عند حده ، وبمقدار اتصال القلب به وتفكير العقل فيه تكون درجة المرء عند الله تعالى . وما من امرىء يتعاهده بالتلاوة والحفظ ، والفهم والعمل الا نزلت عليه السكينة ، وحفته الملائكة كيف لا وقد قال النبي ﷺ : يا أبا رزين اقرأ القرآن فانه نور لك في الارض وذخر لك في السماء . وتأمل ما حدث للصحابي الجليل سيدنا أسيد بن حضير رضي الله عنه .

(بينما هو يقرأ من الليل سورة البقرة) وفي رواية سورة الكهف (وفرسه مربوطة عنده اذ جالت الفرس) يعني اهتزت واضطربت اضطراباً شديداً (فسكت) أسيد عن القراءة (فسكنت) الفرس عن الاضطراب (فقرأ فجالت الفرس فسكت وسكنت الفرس ، ثم قرأ فجالت الفرس) أيضاً (فانصرف) أسيد (وكان ابنه يحيى قريباً منها) أي الفرس (فاشفق) أي خاف أسيد (أن تصيبه أي تصيب الفرس ابنه (فلما اجتره) يعني اجتر أسيد ابنه (رفع رأسه الى السماء حتى ما يراها فلما اصبح حدث) أسيد (النبي ﷺ) بما جرى (فقال له ﷺ (إقرأ يا ابن حضير إقرأ ابن حضير)والمراد الاستزادة من القراءة حال رؤية الملائكة ونزول السكينة، وكأنه عليه السلام يحضه ويستزيده على مداومة القراءة وعدم قطعها (قال) أسيد (فأشفقت) خفت ووجلت (يارسول الله أن تطأ) الفرس ولدي (يحيى وكان منها قريباً فرفعت رأسي فانصرفت اليه)أي الى ولده (فرفعت رأسي) ثانياً (الى السماء فاذا مثل الظلة) والمراد بالظلة السحابة كانت فيها الملائكة ومعها

السكينة فانها تنزل أبداً مع الملائكة قاله ابن بطال . (فيها امثال المصابيح فخرجت حتى لا أراها قال) : النبي ﷺ مخاطباً لأسيد ومن معه (وتدرون ما ذاك قلت لا قال تلك الملائكة دنت) أي قربت (لصوتك) وكان سيدنا أسيد حسن الصوت وفي رواية قال له عليه السلام (إقرأ أسيد فقد أوتيت من مزامير آل داود (ولو قرأت) أي دمت على قراءتك ولم تقطعها (لاصبحت ينظر الناس اليها) أي الى الظلة وفيها الملائكة (لا تتوارى) أي تستر (منهم) .

وفي هذا الحديث بيان فضيلة من يتعاهد القرآن الكريم بالتلاوة والاستذكار آناء الليل والنهار ، فتهبط عليه الرحمة ، وتغشاه الملائكة كما حدث لسيدنا أسيد بن حضير رضي الله عنه . وفي حديث البخاري عن أبي موسى عن النبي ﷺ قال : المؤمن الذي يقرأ القرآن ويعمل به كالأترجه طعمها طيب وريحها طيب ،والمؤمن الذي لا يقرأ القرآن ويعمل به كالتمرة طعمها طيب ولا ريح لها ، ومثل المنافق الذي يقرأ القرآن كالريحانة ريحها طيب وطعمها مر ، ومثل المنافق الذي لايقرأ القرآن كالحنظلة طعمها مر وخبيث وريحها مر) فليجهد الانسان نفسه أن يكون قارئاً للقرآن عاملا بمضمونه وما اشتمل عليه من أحكام ، وحلال وحرام ، مؤمناً به محباً لتلاوته حتى يكون مثله مثل الإترجة لذيذ الطعم طيب الرائحة والنكهة .

الدرس التاسع والعشرون

حفظ اللسان والفرج

اخرج البخاري في صحيحه عن سهل بن سعد رضي الله عنه قال : قال رسول ﷺ : من يضمن لي ما بين لحييه وما بين رجليه أضمن له الجنة .

* * *

هذا الحديث على الرغم من إيجازه فهو وصية ثمينة من أبلغ الوصايا واقيمها، واجلها وانفعها . فقد اشتمل على الامر بحفظ عضوين وتعاهدهما بالرعاية والاستقامة ، والرقابة والصيانة ، ألا وهما اللسان والفرج . وبحق ان اللسان والفرج لان اطلق سراحهما في الشهوات واللذات وطرق الغي والفساد كانا اصل البلاء والفتنة ، والشر والهلاك . فالعاقل من يبصر مواقع الكلام ، ويحفظ لسانه من الفضول والهذيان، وفي الحديث (من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً او ليصمت) وان زلة من زلات المرء في لسانه ، قد تؤدي به الى الهلاك والعطب ومفارقة أهله وولده واصدقائه وجيرانه ، فليحذر المرء مما يجري به لسانه وليستعمله اداة خير وإصلاح ، فهو خير وسيلة الى طريق النجاة والفلاح . ولا تحسبن أن حفظ اللسان قاصر على الصمت في موضعه او الكلام ، بل يتعدى الى حفظه من طعام مشبوه او حرام . ومن المعلوم ان اللسان هو الوسيلة لمضغ ما يأكله المرء وقذفه الى المعدة بيت الطعام ومستقره ، وليصنه من الزلل والحرام فهو خير له في عاقبة امره .

اللحيان : بفتح اللام وسكون الحاء العظمان في جانب الفم النابت عليهما الاسنان علواً وسفلا . والمراد اللسان وما ينطق به . والمراد بما بين رجليه الفرج.

وثانيها : حفظ الفرج بترك التعدي على اعراض الناس وحرماتهم ووضعه في الحلال من الطرق المشروعة وكفه عن الزنا والحرام .

والزنا آفة وبيلة على المجتمع الانساني توقع بين افراده العداوة والبغضاء ، والتخاصم والشحناء ،وهي دالة على خسة مرؤة من يتعاطاها ،ومؤذنة له بالامراض الفتاكة والعلل المزمنة والاسقام . وجاءت الشرائع السماوية محظرة من هذه الآفة الممقوتة المتحقق ضررها وفسادها في الارض ووصف الله الزنا بكتابه بأخس الاوصاف وأشرها ،وبالغ بالامر بالابتعاد عنه فقال تعالى : ولا تقربوا الزنا إنه كان فاحشة ومقتاً وساء سبيلا) وفي الحديث عنه ﷺ : (لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن) .

فالعاقل من يبتعد عن الموبقات ، والآفات المزريات . وليحفظ لسانه وفرجه من الوقوع في المهلكات فقد ضمن سيدنا رسول الله ﷺ لمن ضمنها الجنة .

الدرس الثلاثون

قول الخير أو الصمت واكرام الجار والضيف

اخرج البخاري في صحيحه عن ابي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت ، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم جاره ، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه

* * *

بين الرسول الاعظم ﷺ في هذا الحديث أموراً يقتضيها الايمان الكامل ، والاسلام الصحيح المؤدي بالمرء لسعادة الدنيا والآخرة .

أ ــ قول الخير او الصمت . فمن آمن بالله واليوم الآخر وصدق بوعده ، وخاف وعيده كان إيمانه حافزاً له لان يقول الخير ويجاهر به ويدعو اليه ، فمن لم يتيسر له قول الخير والعمل به والدعوة اليه فليصمت فهو خير له ، وآفات اللسان كثيرة كما بيناه في غير موضع من هذا الكتاب ، قال تعالى : (ما يلفظ من قول الا لديه رقيب عتيد) وقد ذكر العلماء ان هذه العبارة من جوامع كلمه ﷺ لان القول كله إما خير وإما شر وإما آيل لاحدهما وراجع له . فدخل في الخير كل ما طلبه الشارع الحكيم ﷺ على سبيل الوجوب والندب او اذن فيه الشارع على اختلاف انواعه وما يرجع اليه ، وما عداه فهو من قبيل الشر المأمور بالامساك عنه والصمت وترك الخوض فيه .

٢ ــ إكرام الجار : للجار حقوق كثيرة وقد اوصى الله تعالى بالاحسان اليه في كتابه في مواضع كثيرة منها قوله : (وبالوالدين إحسانا وبذي القربى واليتامى

والمساكين والجار ذي القربى والجار الجنب والصاحب بالجنب) وتختلف مراتب الجار في الحقوق والواجبات فبعضها اعلى من بعض . فالجار المسلم القريب او لى ممن لم تتوفر فيه هذه الصفات او بعضها ، وإنما يكون الاحسان اليه واكرامه بعمل ما تستطيع القيام به من انواع البر فان جاع اطعمته ، وان عري كسوته ، وإن مرض عدته ، وإن استعانك اعنته ، وإن نزلت به كارثة في نفس او مال فرجت همه ، وخففت حزنه وألمه ، وإن نالته سعادة هنأته ، وان مات شيعته ، وأن تحرص على مصالحه حرصك على مصالح نفسك . وفي حديث البخاري عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال : ما زال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت انه سيورثه . وعن ابي شريح قال : قال النبي ﷺ : والله لايؤمن ، والله لا يؤمن والله لايؤمن ، قيل : ومن يارسول الله : قال الذي لايأمن جاره بوائقه ، فاذا امر النبي ﷺ بالاحسان الى الجار بوجه عام سواء كان مسلماً او غيره ، قريباً أم بعيداً ، صديقاً او بغيضاً . صالحاً او فاسقاً ، فمن باب اولى ان يأمر بكف الاذى عنه وستر عورته ، وعدم إشاعة زلته ، وإن من نعم الله على عبده ان يحوطه بجوار صلحاء امناء ، يشيعون حسناته ، ويسترون عيوبه وزلاته ، وليعلم انه مطالب به ومسئول عنه بين يدي احكم الحاكمين . وفي الحديث ما آمن بي من بات شبعان وجاره جائع الى جنبه وهو يعلم .

٣ — إكرام الضيف : وإنما يكون اكرامه بحسن استقباله والبشاشة في وجهه . والضيافة خلق النبيين والمرسلين ، وعمادها المسارعة الى تقديم الطعام له مما عنده من غير كلفة وإسراف ، ومنادمته للترويح عنه بذكر الاحاديث السارة والنوادر المستحسنة ، ويودعه كما استقبله بالبشر والسرور . والضيافة الشرعية ثلاثة ايام وما زاد عليها فهو صدقة من الصدقات ، وقد اوجبها بعض العلماء واكثرهم على انها من مكارم الاخلاق ، وحسن الشيم والعادات .

الدرس الحادي والثلاثون

وحدة المسلمين واجتماعهم

أخرج البخاري في صحيحه عن النعمان بن بشير رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : ترى المؤمنين في تراحمهم وتوادهم وتعاطفهم كمثل الجسد إذا اشتكى عضو تداعى له سائر جسده بالسهر والحمى .

* * *

يمثل الرسول ﷺ وحدة المسلمين واجتماعهم بالجسد الواحد فاذا تألم منه عضو بمرض ونحوه سرى الالم لباقي الاعضاء فلم يستقر له حال ، ولم يهدأ له بال ، وفقد لذة النوم والعافية ، وكذلك المؤمنون إذا نزلت بهم كارثة ، أو ألمت بهم نائبة في صقع من الاصقاع ، أو ناحية من البلاد تألم الباقون لألمهم ، وسعوا بعواطفهم لرفع ما ألم باخوانهم من نوائب ، وما حل بهم من خطوب . وإن تباعدت أقطارهم ، وتناءت ديارهم تحقيقاً لأخوة الايمان ، ورابطة الاسلام المشار اليها بقوله تبارك وتعالى : (إنما المؤمنون إخوة) وبقوله : (واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته اخوانا) فالتوادد والتآلف ، والتعاون والتعارف واجب من آكد الواجبات على المسلمين لأنهم في دين الله إخوان ، وفي محبته اخدان ، والمسلم الغربي أخ المسلم الشرقي ، والمسلم الهندي شقيق المسلم الحجازي ، وهكذا بقية أفراد المسلمين ، إخوان أحباء ، وأعوان أوفياء رحماء تحقيقا للاعتصام المنشود ، والوحدة المطلوبة بقوله تعالى : (واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا) ولما أثر عن السيد الحكيم ﷺ من

قوله : (المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً وشبك بين أصابعه) فحري بالمسلمين ، وجدير بالمؤمنين الموحدين أن يكونوا كتلة واحدة ، وصفاً واحداً متراصاً على نوائب الدهر وحوادث الزمن ، وليعلموا أن بالتفرق والاختلاف ، والتنازع والشقاق يكون الهلاك والعطب . والخسران والزوال على حد الآية الكريمة (ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم) فالمسلمون بمجموعهم كشخص واحد ، وكل فرد بالنسبة للمجموع كالعضو بالنسبة للشخص ، فاذا أصاب الخير واحداً منهم فكأنما أصاب الجميع ، والشر يصيب الواحد أيضاً فكأنما وقع ألمه على المجموع .

وفي هذا الحديث عظة بالغة ودرس عظيم لاولئك المسلمين الذين لا يهتمون بأمر اخوانهم ، وما نزل بجيرانهم من كوارث ومحن ، ومصائب وفتن . والنبي ﷺ يقول : من لم يهتم بأمر المسلمين فليس منهم . والله المسئول أن يوفق المسلمين للوحدة والاجتماع ، ونبذ التناكر والاختلاف ، فهو خير مسئول وأفضل مجيب .